خلفيات إنتاج الصورة وفلسفة صناعة الحدث ودورهما في التأثير على الرأي العام –صورة إنسان العالم الثالث(العربي) المستوردة عن نفسه نموذجا–

أ.معاشو بووشمة /جامعة سيدي بلعباس

تحوَّل الإعلام إلى وعاء كلي تتجمع وتتكدس فيه أدوات الصراع والمنافسة والتحدي في صورة مكثفة ،وقامعة لحرية التفكير والرأي، متجاوزة الجدلية القائمة بين سلطة الإعلام وحرية القرار أو الاختيار الفردي المستقل أي الانقياد اللاواعي .عبر تحول هذه الوسائل إلى أداة هيمنة تشكل الأخلاق والقرارات وحتى الخيارات وفق إديولوجياتها الخاصة في وقت فرضت فيه الثقافة الغربية خصوصيتها وجعلتها نسقا كونيا يختزل الحضارة في العطاء بأسماء متعددة منها العطاء الحضاري ،ووحدة النوع البشري في مقابل احتقار تام للثقافات الأخرى غير الغربية .وأصبح إنسان العالم الثالث المتخلف (ومنها العربي) كرعية ينتظر بترهب من يأتيه بالتفسير و اليقين بشكل أضحت معه الصورة المصدرة والموجهة إليه عن نفسه هي الموجه الواعظ والمقرر في نفس الوقت لما يجب أن يفهمه وكيف يتصرف إزاءه بصفة عامة.

من جانب آخر تسهم الصناعة الإعلامية في رسم الصور الذهنية والنمطية بخلق حالة وعي مركز، مستغلة في ذلك سرعة تداول المعلومة والأفكار وانتشارها وسهولة مرورها وتأويل الأحداث التي تعتبر تجسدها الميداني ووسيلتها في ذلك من خلال توجيه كيفية تداول الأحداث بما يخدم تلك الصور ويوسع من مدى انتشارها من جهة وتغلغلها في الذهن (حتى تصير شائعة وراسخة) وتتحول بالتالي إلى دافع عقلي وموجه ذهني. ومن جهة أخرى يصبح الحدث صانع للصورة و شاهد ومؤول لها في نفس الوقت ويتم ذلك وفق سياسات وآليات مدروسة ،تنطلق من خلفية في التفكير الممنهج تتم هندستها في مخابر صناعة وقولبة الرأي العام كما يلي:

– استغلال عناصر البنية النوعية للصورة النمطية:

المعروف ان مفهوم الصورة النمطية تطور منذ عشرينات القرن الماضي إلى يومنا هذا ، ودخل إلى حقول معرفية مختلفة مستعينا ومستفيدا منها كالفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والإعلام، والآداب والفنون.ومنذ أن استخدم الصحفي الأمريكي والتر ليبمان مصطلح الصورة النمطية معبرا عن حالات تختلج في الذهن البشري و التي تطرح كمفهوم أو تصور "...إن الشعور الوحيد الذي يحمله أي شخص حول حدث لم يجربه هو شعور نابع من تصوره الذهني للحدث وأن ما يقوم به لا يعتمد على معرفة معينة أو مباشرة بل على صورة صنعها أو أعطيت له..."[1] ولا يبتعد عنه في تبني هذا المفهوم أو التصور الباحث غردون اليوت حيث يعرف الصورة النمطية "...اعتقاد مبالغ فيه يرتبط بفئة ، وظيفته تبرير السلوك إزاء تلك الفئة... " [2].وهي بشكل أخر تلك السمات الراسخة والشائعة التي يتبناها شعب أو فئة ما عن شعب أخر، وتصبح مع مرور الوقت عقيدة جماعية راسخة والتي لا تستلزم دائما الموضوعية والعلمية ،بقدر ما تكون مفبركة او مصطنعة أو مشوهة، وفي أحسن الأحوال مقاربة وغير مكتملة أي تفتقد عناصر الصدقية والحقيقة والموضوعية.

ومن جانب آخر فإن من طبيعة اعتمال الصورة في الذهن وعلاقة ذلك بالتفكير وتحريك المشاعر والتي "...تجتمع وفقاً لقوانين معينة مجهولة وغامضة، تحرك مشاعرنا فعلاً بطريقة معينة.."[3] وكون الصورة بتلك التركيبة والاشتغال تعتمد على معطيات يحصل عليها الفرد ويقوم بتركيبها عن طريق "...إبداع خالص للذهن ولا يمكن أن تنتج عن مجرد المقارنة أو التشبيه ،إنها نتاج التقريب بين وقائع متباعدة..." [4]،من هذا المنطلق تصبح "...قادرة على التأثير الانفعالي.."[5] ، ويهدف هذا الاشتغال إلى تحقيق هدف هوحفرها في الذاكرة من جهة وتمريرها إلى البنية الفكرية للجماعة من جهة أخرى.كما أن النظرة المتخيلة تجعل من الواقع شيئا متخيلا ،في الوقت الذي تغدو هي واقعية ، وترد لنا الواقع ثانية "...إنها أشبه بمدار دائري، يقوم بالتبادل والتصحيح والانتقاء..."[6] وهي التي تصبح مسيطرة وتؤثر على التفكير وتحفزه على التأويل بمقتضاها.

ومن منطلق سيطرة الفكر الغربي الغالب كما يشيع عن نفسه حيث أضحت الأنا الغربية هي المعيار الذي يجب أن ينصهر في بوتقته الآخر حتى يكون هويته الخاصة وصورته عن نفسه قياسا على بنيتها وأسبقيتها وتقدمها ،التي تنطلق من إفرازات ظروف تاريخية منحت الغرب قوة أضفت عليها شرعية القوة والسيطرة.من هذا الأساس يبني العربي صورة مستورد عن نفسه تكون ملامحها احتقار ثقافتة الخاصة واعتبارها سلبية لا تدعو للتطور ،وعزلة شخصية عن العالم باعتباره متخلف عن البقية ،ترتيب متدني بسبب عدم فهم شروط الحضارة ، و عجر عن مواكبة التكنولوجيا فهما وممارسة ،أي الاقتناع بالتخلف الحضاري والأخلاقي والفكري والركون إلى تحليلات وتقديرات الأخر المسيطر ،وبالتالي الاستعانة به فكريا وثقافيا وتقنيا،واستعارة أدواته.

- خلق حالة وعي بالفردية وتعزيزها:

يعمل خبراء صناعة الصورة النمطية وفق مبادئ منظمة مستمدة من هيكلة فكرية يتم بلورتها وفق:

- تحفيز القوى النفسية والدوافع أي تعزيز الروح الفردية والوعي الشخصي ويتم ذلك ب :إيهام الفرد بأنه يكافح ليسترد القوة التي يعتقد أنها سلبت منه،من أطراف تستغله وتقبع فوق صدره "...لكن هذه التمايزات لا تكاد تشكل هويات أساسية ،لم تختف كل الفروق بين الجماعات ولهذا السبب بالضبط فهم يسبغون أهمية متزايدة على الأفراد ..."[7].

- خلق الدوافع مما يعني تقوية دوافع الفرد وإيهامه انه بمقدوره فعل أكثر والتحرر من القيود التي تكبله.في قالب يبدو بريئ ويدافع عن الروح الإبداعية لدى الفرد. "وتزويد الإنسان بالهوية ..وتحقيق الأحلام"[8] .

- صناعة الأوهام إيهام الفرد بأنه قادر على إحداث التغيير ومواجهة الصراعات الاجتماعية،أي منح الفرد معنى المصلح الاجتماعي والروح الثورية وذلك باستغلال النزعة الاجتماعية لدى الفرد.وما يمكن تسميته صناعة الأبطال (وهم البطل الثوري).

5- تبديل الهويات :تلعب الصورة دورا هاما في منح الفرد هويات بديلة مقابل تلك التي عمدت إلى تدميرها،ففي مقابل سلب الوقت من المشاهد المستلم وتحطيم فعالية التواصل المباشر وحميمية التلاقي ،وهو ما يعزز الهوية الاجتماعية .راحت الصورة تمنح المتلقي"... هويات بديلة هي السلعة وما يريده المتلقي..."[9] كما تصفه، وهوية البطل الرياضي ثم الفوز والقوة الوهمية أي تصوير المحارب الخارق وغيرها.

- استغلال المزايا التقنية

وبناء عليه تأتي التقنية في التصوير كعملية تكميلية تسترشد بهذه الفلسفة أو الخلفية وتتحرك ضمن سياقاتها لا تحيد عنها وهي تستعمل المعايير والمقاييس التالية:

أ- الإطار العام : وهو الصورة المكتملة في الذهن.

1- كيفية تفسير الأحداث وربطها بالفكرة الأم.مناقشة الأحداث المختلفة وإثارة القضايا الإعلامية في محاور النقاش وربطها تعسفيا بسياقات غير سياقاتها الأصلية أو أسبابها الحقيقية.

2- شحن الصور بالدلالات المطلوبة لإحداث التفسير المطلوب أي توجيه التفسير بما يخدم الصورة الذهنية.خلال تقديم الأحداث وتفسير أسبابها أو مناقشتها كمضوعات الساعة يتم عرض التفاتات الى صور وعناصر جزئية مرتبطة – شكل مربك للذهن –بالموضوع بطريقة باهتة.

3- تلاحم أجزاء الصورة ومختلف قضايا وترابطها ببعضها أي تجميع أجزاء الصورة بعد تقديمها متقطعة إلى جزئيات منفصلة .نظرا لسعة الصورة وحجمها وتشعبها.إرباك عملية التأويل الشخصي .و يتم ذلك عن طريق تعمد "...جعل الحدث سلعة تفصَّلُ حسب ذوق المستهلك. وأصبحت الأخبار والاستعراضات مسنداً للإعلانات التي تتحكم بتمويل البرامج وانتقاء مقدميها ..."[12]

ب- الزاوية : وتعتبر المسافة أو الموضع ثم الناحية التي تقدم فيها الصورة وكيفية تكييفها للحصول على التأويلات المطلوبة وإحداث الانفعال اللازم للحصول على الاستجابات المبتغاة.

ج- الترابط والإيحاء: وهي مجموعة تقنيات تعمل بالتوالي وتهدف إلى التأثير على تداول الموضوع

1- ربط العناصر بخلفيات مختلفة تحدث التأثير في سياق الربط.

2- التذكير بأحداث أو صور مستقلة سابقة تمت للموضوع بصلة لإحداث الإيحاء المطلوب.أي الاستعانة بصور مغايرة وتفسيرها بما يخدم الصورة المراد رسمها في الذهن.

3- نقل التفكير من الموضوع الحدث إلى هامش مختلف يبتعد ببطئ عن الموضوع الرئيسي.ويصل أو يصب في الصورة الأصل.

المصادر والمراجع

1. السيد ياسين ،الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر- دار التنوير- بيروت، 1981م ، ص -41.
2. نفسه ص-42.
3. كلايف بل، الفن، ترجمة : د. عادل مصطفى، دار النهضة العربية-بيروت، ط1، 2001، ص41.
4. محمد الولي :الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي.المركز الثقافي العربي- بيروت.ط1 -1990. ص-16.
5. نفسه. ص-16.
6. نفسه. ص-16.
7. راسل جاكوبي :نهاية اليوتوبيا السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة: راسل جاكوبي، ترجمة فاروق عبد القادر. سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت 2001.ص-65.
8. عبد الوهاب بوخنوفة :الامبريالية الاعلامية وتسويق الاوهام ، ،مجلة الصورة والاتصال.عدد 1-2، 2012.ص-95.
9. نفسه .ص- 95.
10. هربرت أ . شيلر: المتلاعبون بالعقول: ،ترجمة عبد السلام رضوان .سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت 1999 .من ص-13 الى.ص- 40.
11. نفسه ،ص- 22.
12. محمود حسن إسماعيل: مبادىء علم الاتصال ونظريات التأثير ، مكتبة الدار العالمية - القاهرة - ط1 ، 1998 .ص-147.
13. هربرت أ. شيلر: المتلاعبون بالعقول ،ص 35
14. نفسه،ص- 31.
15. المرجع السابق ،ص- 37
16. نهاية اليوتوبيا السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة ، ص195.
17. هربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول ،ص 36
18. نفسه ،ص 43.